المحور الثاني: العمارة

الجسور الأثرية بمدينة تلمسان وضواحيها (دراسة أثرية)

د/ الرزقي شرقي
قسم الآثار- جامعة تلمسان

مقدمة:

تزخر مدينة تلمسان وضواحيها بتراث معماريّ أثريّ شديد التّنوع، وفي منتهى الأهمية الأثرية، إلاّ أنّ الأبحاث الميدانية، والدّراسات العلمية التّي طالته حتّى السّاعة، ما تزال حبيسة التّقليد الاستعماري الذي رسمه لها في غضون النّصف الأوّل من القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي، والذي مفاده تخصيص بعض المعالم التّاريخية، وفي مقدمتها العمارة الدّينية، كالمساجد، والعمارة الجنائزية كالقباب وأضرحة الأولياء على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر، المنتقاة بعناية فائقة بتوثيق وصفي انطباعي دون سواها[1]، ممّا يؤكّد بوضوح توجيه هذا النّوع من الأبحاث والدراسات للمعمرين والسّياحة، وليس لحفظ هذا التّراث الحضاري العريق، وتكريم أصحابه الذين صنعوا مجده على مرّ قرون طويلة.

ولعلّ ابلغ دليل على ذلك، هو طمس جلّ معالم العمارة المَدَنية كالمنازل، والقصور، والصّروح الثّقافية كمدارس التّعليم مع بداية الاحتلال الفرنسي عن قصد بحجج واهية[2]، وإهمال بقية المعالم الأثرية الأخرى، كبقيا الحصون العسكرية

1- ينظر بهذا الصّدد على سبيل المثال لا التّخصيص والحصر، المراجع الآتية:

- BARGES (J. J. L), Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom (Sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, anecdotes, légendes et récits divers, souvenir d'un voyage), Paris, 1859.

-DE LORALL, (E), «Tlemcen», In: Tour du monde, N° 30, Année 1875, pp 305 - 368.

-MARÇAIS (W & G), Les monuments arabes de Tlemcen, Editeur Albert FONTEMOING, Paris, 1903.

-SYNDICAT D'INITIATIVE DE TLEMCEN, Tlemcen et sa région, Imprimeur A THIRIAT, TOULOUSE, 1921.

2- يمكن الإشارة في هذا المقام إلى تحويل «المشور»، موقع القصر الملكي الزّياني إلى ثكنة عسكرية، وتحويل مسجده إلى مستشفى عسكري، وتهديم المدرسة التاشفينية بقلب المدينة في سبيل فتح=

القائمة بجوار الحظيرة الوطنية للغابات اليوم بأسفل هضبة «لالاّ ستّي»؛ والمنشآت المائية، كقناطر المياه، وصهاريج السّقي، والقنوات، والسّواقي، المنتشرة على نطاق واسع عبر السّهول الواسعة، الممتدّة شمال المدينة[1]؛ والمنشآت الفنّية كمدّ الجسور على شعاب ووديان المدينة، موضوع هذه الدّراسة، وترصيف وتبليط بعض الطّرقات الرّئيسية[2]، وما إلى ذلك.

وهي كما يبدو للعيان شواهد مادّية، تؤكّد بوضوح مستوى تقدم، وازدهار مدينة تلمسان عُمرانا، وحضارة يوم كانت عاصمة للمغرب الأوسط (الجزائر) بشكل عام، وموطن زناتة منه بشكل خاص في غضون الفترة المتأخّرة من القرون الوسطى.

1) خصائص موقع مدينة تلمسان وحاجته إلى مدّ جسور لربط المدينة بالضّواحي:

تقع مدينة تلمسان في سفح جبل «لاّلا ستّي»، الذي يحيط بها من النّاحية الجنبية، وذلك في شكل انسيابيّ ينطلق من النّاحية الجنوبية في اتجاه الشّمال بنسبة مَيْلان طفيف، مقداره على وجه الدّقة والتّحديد 3.6 في المائة بالنّسبة للمقرّ الأحدث تاريخيا في المدينة، أي «تاقرارت»[*3]، ولذلك فإنّ فارق الانسياب بين أعلى مستوى في المدينة عند باب «الحديد» الحالي تحديدا، الذي بلغ ارتفاعه عن مستوى سطح البحر 817 مترا، وباب «زير» في الشّمال الشّرقي بوصفه أدنى

=السّاحة التّي تربط اليوم بين دار البلدية والجامع الكبير، وطمس معالم القصر القديم، وكلّ ما يحيط بالجامع الكبير المذكور في سبيل بناء السوق المغطاة، وشق الشّوارع المحيطة به، وطمس معالم المقبرة الملكية بمجمع سيدي إبراهيم المصمودي، وما إلى ذلك.

1- تَعْرِض سهول «الحنايا»، و«شتوان» فضاءً خصبا لدراسة هذا النوع من الآثار المتميّزة.

2 - MARÇAIS (G & W), Op.cit, p 206, Planche XI.

3-* لم يؤخذ بعين الاعتبار معامل الميل بالنّسبة لموقع أغادير لسببين أساسيين، أوّلهما بقاء مرافق تلك المدينة مغمورة من غير تنقيب، يسمح بإعادة قراءة نُسُجها العمرانية بشكل صحيح، لاسيما وأنّ شغل السّطح بها قد كان متكررا خلال الفترة القديمة، والفترة الوسيطة عدّة مرّات، مما يستوجب توخي الحذر، وتجنب الإدلاء بالأحكام السّريعة، والفرضيات المجانية؛ وثانيهما هجر هذا المقرّ بشكل تلقائي في ظلّ ظروف تاريخية تبقى غامضة لدينا في الوقت الرّاهن، أيام حكم الأسرة الزّيانية بتلمسان، وتحوّل بموجب ذلك مختلف الأنشطة الاجتماعية، والإدارية، والاقتصادية إلى "تاقرارت" بدل "أغادير" التّي أصبحت مجرّد ضاحية للمدينة الجديدة، لا أكثر.

نقطة من «تاقرارت»، والذي بلغ ارتفاعه 769 مترا، هو 48 مترا (المخطط: 01).

يحدّه من النّاحيتين الجنوبية، والشّرقية وادي «مشكانة» الذي انطمست معالمه اليوم بالكامل بفعل الزّحف العمراني الذي طال المدينة من تلك النّاحية، وربط المدينة التّاريخية بالضّواحي، قبل أن يصبّ في وادي «الصّفصيف» بشرق المدينة، الذي نال حظوة كبيرة في وصف الرّحالة والجغرافيين، بل وحتّى الأدباء والشعراء خلال فترة القرون الوسطى من أمثال المقّرّي الذي قال في وصف هذا الوادي وجسريه قائلا:

بلـــد تحـــفّ بـــه الرّياض كأنّـــه   وجـــه جميـــل والرّياض عـــذاره

وكأنّمـــــا واديـــــــه غـــــادة   ومـــن الجسور المحكمة ســـواره[1]

ذلك الوادي الذي كان يقطعه الطّريق الرئيسي الذي يربط بين تلمسان، حاضرة المغرب الأوسط وبقية مقاطعاهًا في شمال، وشرق البلاد على غرار النّاحية الغربية منها، حيث يقع الطّريق الرّابط بين تلمسان ومدينة فاس المغربية، الذي تتخلله بدوره بعض الشّعاب الموسمية الجريان على مستوى موقع المنصورة (المخطط: 02)؛ خلافا للنّاحية الشّمالية التّي تبدو في شكل حوض سهلي خصب، يستوعب معظم مياه تلك المجاري.

2). جسْرَا وادي «الصّفصيف» بشرق المدينة وشمالها الشّرقي:

تمّ إقامة جسرين متجاورين على ضفاف هذا الوادي، لا يبعدان عن بعضهما بعضا سوى بنحو ثلاثة (03) كيلو مترات فقط، وهو ما يحمل على الاعتقاد في نظر الدّارس فرضية بناؤهما في وقت غير متزامنٍ على الرّغم من انتسابهما إلى نفس الفترة الثّقافية، وإلى ذات المرحلة التّاريخية.

1- محمد بن عمر الطمار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م، ص 8.

أ). **الجسر السّفلي***[1]: يقع هذا الجسر (اللّوحة: 01) في النّاحية الشّمالية الشّرقية من مدينة تلمسان الحالية، وذلك على بعد نحو ثمانية (08) كيلو مترات منها، وتحديدا في النّقطة الفاصلة بين مدينة شتوان**[2]، والمجمع شبه حضري المجاور لها اليوم من تلك النّاحية، المعروف باسم «أوزيدان»، حيث كان في ما مضى مرور الطّريق العسكري الرّابط بين تلمسان ووهران، قبل تحوّيل مساره في وقت لاحق على مستوى مدينة «عمير» الحالية من طرف الهندسة العسكرية الفرنسيّة غداة احتلال مدينة تلمسان عام (1836)م[3].

قوام هذا الجسر الذي ما يزال مُستغلاًّ حتّى اليوم في غياب أدنى أشغال الصّيانة الدّورية، وبقائه من غير تصنيف في قائمة التّراث الوطني، مثله مثل بقية الجسرين المتبقيين من قواعد الجسر الأصلي قبل أن تلحق به عملية التّرميم، والزّيادة في ارتفاعه، دون التّوسعة في عرضه من طرف الجيش الفرنسي عام (1846)، المكونة من ثلاثة مصاطب ضخمة من الطّابية (اللّوحة: 02)، كانت مُعدّة خصّيصا لحمل عقدين كبيرين لدعم ممرّ الجسر، الذي يبدو أنّه كان مستويا، ومزودا بجدارين جانبيين قصيرين على هيئة جسر المنصورة الآتي الذكر.

وهو القسم الذي هدّمه الجيش الفرنسي عن طواعية، وأعاد تجديده بالحجر المهذّب على نسق بقية الجسور الجزائرية المشيدة خلال تلك الفترة (اللّوحة: 01)، غير أنّ أهم ما يميزه في هذا المقام هو تضمّنه كتابتين تذكاريتين في منتهى الأهمية حول تاريخ تلمسان وظروف ترميم معالمها الرّئيسية قبل عام (1846)م (ترميم الجامع

1- * مصدر هذه التّسمية، وتسمية الجسر الآخر في هذا المقام، هي من وحيّ الكتابة التذكارية التّي كانت تزيّن هذا الجسر.

2- ** تمّ استحداث هذه المدينة في حدود منتصف القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي فقط من طرف الاحتلال الفرنسي، الذي أنشأ بها في بادئ الأمر قرية فلاحية صغيرة للمعمرين بغرض استغلال سهولها الخصبة، تحت اسم أحد قادته العسكريين السّابقين (NEGRIER)، الذي ما يزال ينافس التّسمية الحديثة للمدينة «شتوان» في لغة السّكان حتّى اليوم، والذي هو مصدر تسمية هذا الجسر باسم «جسر نيقريي» (PONT DE NEGRIER) في كتابات المؤرخين الفرنسيين، كما هو موضّح في موضعه من الإحالة الموالية.

3- BEL (A),Note sur une inscription de 1846 figurant sur le pont de Négrier ,«In :*Revue Africaine*, N° 55, Année 1911, p 160.

الكبير، ومجمع العبّاد، وتحويل قلعة المشور إلى ثكنة عسكرية كبيرة، وشقّ الطّريق الرّابط بين تلمسان وأوزيدان اليوم بدءً من السّجن الذي بأسفل دار الحديث، ومرورا بباب القرمادين في انتظار تمديده إلى وهران لاحقا)، حيث كُتبت إحداهما باللّغة الفرنسية على لوح مستطيل الشّكل، أُتخذ من الحجر الرّملي الأحمر اللّون، والذي ما يزال قائما في مكانه الأصلي حتّى اليوم (اللّوحة: 03)، يُشير من جانبه إلى تاريخ ترميم ذلك الجسر على يد الجيش الفرنسي عام (1846) بشكل مقتضب، حيث تضمّن ثلاثة سطور هذا نصّها الكامل:

«RESTAURATION DU PONT . ARMEE FRANÇAISE . 1846»

أو ما نصّ ترجمته: «ترميم الجسر/ الجيش الفرنسي/ 1846م».

وآخرهما كُتب باللّغة العربية على لوح مماثل لسابقه، أبعاده (150 ط 80) سم على حسب رأي «ألفرد بال» الذي شاهده عيانا عام (1911)، وكما يؤكّد ذلك اليوم آثار تثبيته على الجهة الشرقية من بدن الجسر (اللّوحة: 04)! قبل اختفائه في وقت لاحق في ظروف غامضة بالنّسبة إلينا، حيث تضمّن هو الآخر بدوره نصًّا كتّابيا يقع في ستّة عشر (16) سطرا كاملا، طول الواحد منها (142) سم، هذا مضمونها كما نشرها المستشرق الفرنسي «ألفرد بيل» عام (1911) بالمجلّة الإفريقية:

«الحمد لله وحده والأمر كلّه لله لما أن ملك الله تبارك وتعالى بقدرته بلد الجزاير (كذا) وساير (كذا) عمالتها للسلطان المعظّم / مالك الجيوش القوّية والأقاليم الفرانصاوية (كذا) وارث المملكة خلف عن سلف السّلطان ابن (كذا) السلطان لويي (كذا) فليب*[1] (كذا) إلا (كذا) أن أخرج أمره المطاع / لإصلاح المدون**[2] (كذا) بالبناء وتحصينها كمساجدها وطروقها (كذا) وترميم ما هو فاسد فيها بدأ (كذا) بالجامع الكبير من تلمسان فزيّنه وجدّد منبره وصومعته / كان بها

1- * هو الإمبرطور الفرنسي "لويس فيليب" (1830 - 1848)م.

2- ** الصّواب هو "المُدُن".

خراب***[1] فعادت تظهر من بعاد****[2] (كذا) وكذلك مسجد سيدي أبي مدين الغوث بالعباد فأصلح ما كان به من الفساد ثمّ بنا (كذا) دارًا عظيمة النّظير لجيوشه في / بوفهر (كذا) بالمشور دار ملك بني زيان فشيدها بالعلوّ والارتفاع وجعل فيها عدّة مقاصير يفرح بها كلّ ناظر ثمّ أمر بإصلاح الطّريق المنحذرة (كذا) من باب القرماد (كذا) / وصور (كذا) الحمام إلى القنطرة السّفلية وظفرها (كذا) بما يناسبها من أحجار وغرس عن يمينها وشمالها أشجار (كذا) ورمّم القنطرة وشهرها وزاد في علوّ حيطانها / واتحفها كما هو في نقش حجرة مؤسسة فيها (كذا) ومن هنالك زاد بالطريق على النّمط المذكور إلى واد (كذا) يسّر المشهور راج (كذا) من الله الكمال إلى وهران لتسهل على المسافرين / ويعرف ذلك الآتيين (كذا) ما صنعت الملوك الأولين (كذا) وقد كان والي هذه العمالة المذكورة وقتيذ (كذا) المعظم المرشال بيجوا (كذا) فأصرف (كذا) همّته في تأسيس الملك وتأمينه وعمارة / مدونه (كذا) ووطنه لكونه ذو (كذا) عقل وساسة (كذا) وشجاعة ورياسة (كذا) مع كبر سنّه يكون في عمره (كذا) ثلاث وستّين (كذا) سنة والله أعلم بغيبه وكان والي الأمر أيضا معه في العمالة الوهرانية / على إصلاح الوطن المعظم الجنرال (كذا) الأموريسير (كذا) لفطانته وحسن تدبيره وفصاحة لسانه عربية وصبره على المشاق المخزنية بالخدمة الملكية على ظهور نتاجها (كذا) وكان / والي أيضا (كذا) عمالة تلسمان المعظم الجنرال (كذا) كفانياك (كذا) فأبذل (كذا) جهده ونصحه في إصلاح العمالة وردّ الهمالة (كذا) من الرّعية لأرضها بصبر وحسن سيرته وكبر عقله (كذا) / ولا زال على ذلك إلى الآن وحتّى الآن (كذا) إن شاء الله وكان والي البناء في الوقت المذكور كبير الجني*[3] (كذا) القبطان السّيد قبير (كذا) فلم يقصر في الأمر بحسب القدر (كذا) وكبير / جيش المحلّة

1- *** فعلا كان بمئذنة جامع تلمسان خراب يعود إلى عام (1836) عندما دخلت طلائع الجيش الفرنسي مدينة تلمسان لأوّل مرّة وتحصّنها بقلعة المشور، حيث طوّقها الأهالي، وشدّدوا عليها الخناق هناك إلى أن نفذت مؤنتها واستحال عليها المدد، والنّجدة من الخارج. عندها تفطّن قائد تلك الحامية إلى حيلة ماكرة، حيث شرع في قصف المئذنة المذكورة بالمدافع وإلحاق بها أضرارا جسيمة من أجل مساومة الأهلي في السماح له بالخروج من المشور بسلام، أو دكّ جامعهم الذي يتمتع بمكانة خاصّة في نفوسهم بوابل من القذائف. فما كان للأهالي غير إخلاء سبيله في مقابل انقاذ جامعهم العريق من الانهيار.

2- **** الأصح "تظهر من بعيد".

3- * يقصد "الهندسة"، و"الهندسة العسكرية" تحديدا.

المُعدّة للخدمة العاقل الكرنيل (كذا) ماك مهون فجعل ربّي خيرا على فعله ومعه الفسيان (كذا) النّاظر في أحوال الخدمة بالإتقان في الطريق اسمه / ذو تفيل (كذا) لحداقته (كذا) ومعرفته باصلاح ما هو بصدد[ه] فغير خاف على من له عقل تام أنّ هذه الأفعال دالّة على الخير الكثير والانعام (كذا) والهناء والإكرام (كذا) / إعلم ما سُطّر من أوّله إلى تاريخه نقل من خطّ قايد (كذا) تلمسان الفقيه السّيد حمّادي بن الصّقال لطف الله به آمين والسّلام / أواخر ذي القعدة الحرام عام 1862 وبالعجمي (كذا) عام 1846م»[1].

بـــ). الجسر العلوي[*2]: يقع هذا الجسر بالنّاحية الشّرقية من مدينة تلمسان الحالية، وذلك على بعد نحو خمسة (05) كيلو مترات منها، حيث كان مسار الطّريق القديم[**3] الرّابط بين تلمسان ووهران، مرورا ببني سكران وعين تومشنت، الذي ما يزال قائما حتّى اليوم مع تراجع حركة السّير فيه إلى أدنى المستويات في ظلّ حركة تحديث شبكة الطّرقات الجارية اليوم.

وهو في واقع الأمر جسر مُجدّد بالكامل خلال فترة زمنية موالية لفترة ترميم الجسر السّفلي الآنف الذكر من طرف الاحتلال الفرنسي دائما، ليس بالوسع تحديدها حاليا في ظلّ شحّ المعلومات التّوثيقية الخاصّة بها، حيث أصبح جسرا مُتقنا، مبني بالحجر المهذّب، قوامه ثلاثة عقود صغيرة؛ ولم يبق لنا من أصله الأثري من دليل سوى الوصف المقتضب الذي خصّه به الرّاهب الفرنسي «بارجاس» (*BARGES*)، الذي عبر عليه عام (1846)م ذهابا وإيابا، والوصول إليه مرتين أثناء إقامته بمدينة تلمسان، كانت الأولى في نُزهة مع قائد مدينة تلمسان على ذلك العهد، والثّانية برفقة قائد القوّات العسكرية الفرنسية بتلمسان لحضور مراسيم تقديم الولاء من طرف إحدى القبائل المجاورة، حيث قال بشأنه في موضعين منفصلين عن بعضهما بعضا من كتابه الذائع الصّيت حول

1- BEL (A), Op.cit, pp 164 - 166.

2- * كان يُسمى هذا الجسر خلال فترة الاحتلال الفرنسي باسم "جسر معسكر". ينظر:
BEL (A), Op.cit, pp 161 - 162.

3- ** وهو الطّريق الذي سبقت الإشارة إليه في سياق وصف الجسر السّابق.

تلمسان: أوّلهما لما أشرف من ذلك الموضع على مدينة تلمسان، قادما لزيارتها من وهران لأوّل مرّة، حيث قال: «...نعبر جسرًا مبنيّ على الطّراز المغربي، يقطع واديا يُعرف باسم الصّفصاف...»[1]، قبل أنَ ينتقل إلى ما شاهده من حوله من آثار الأضرحة، وأطلال المطاحن الأثرية الدّارسة اليوم بكاملها، قائلا: «والجسر المذكور، محفوف بأطلال بعض المطاحن، إلى جانب ضريح إسلامي ما يزال قائما على هيئته الأصلية»[2].

وثانيهما، عندما كان في فسحة مع قائد مدينة تلمسان آنذاك، السّيد «حمّادي بن الصّقّال»[3*]، الوارد اسمه في الكتابة التّأسيسية العربية الآنفة الذكر، حيث خَرجَا سوّيا في إحدى أمسيات خريف عام (1846)م من تلمسان متنزهين، وهما يتجاذبان أطراف الحديث سيْرا على الأقدام إلى أن بلغَا ذلك الجسر وعبوره، حيث أشار في هذا المقام إلى أنّ بناء هذا الجسر قد كان من الحجر[4].

ومهما كان من أمر، وأمام استحالة ضبط تاريخ إنشاء هذين الجسيرين العريقين بدقّة، فإنّ الشّيء المؤكّد هو تفرّد المستشار الشّخصي للسّلطان الزّياني «أبو حمّو موسى الثّاني»، المؤرّخ يحيّى بن خلدون بذكرهما حينما وصف زحف هذا العاهل بجيوشه الجرّارة على تلمسان في سبيل تخليصها من ربقة المرنييّن عام (760هـ / 1359م)، حيث قال: "عبر[5*] وادي الصّفصيف على جسر وهران[6**]، فيما عبرت العرب المتحالفة معه بقيادة شعيب بن عامر، أخ شيخ قبيلة

1- BARGES, Op.cit, p 82.

2- BARGES, Op.cit, p 82.

3- * أكثر تفاصيل حول هذه الشّخصية التّاريخية المغمورة ينظر:
BARGES, Op.cit, pp 398 - ss

4- BARGES, Op.cit, p 399.

5- * يعني السّلطان الزّياني أبي حمّو موسى الثّاني.

6- ** وهو الجسر المسمّى باسم «الجسر السّفلي» في هذه الدّراسة.

بني عامر جسر الصّفصيف***[1] قبل ملقاة المرنيين في سهل المنية****[2] ".[3] وهو ما يؤكّد بوضوح فرضية إنشائهما قبل هذا التّاريخ بوقت طويل بلا شكّ.

3). جِسْر المنصورة بغرب المدينة:

يقع هذا الجسر بالقرب من مدخل تذكاري ضخم كان يتوسط الجدار الشّرقي من السّور الكبير الذي يحيط بأطلال مدينة المنصورة (المخطط: 02) وذلك على بعد بضعة أمتار منه نحو الدّاخل، حيث تمّ على مستواه فيما بعد شقّ الطّريق القديم الرّابط بين تلمسان ومغنية خلال فترة الاحتلال الفرنسي (اللّوحة: 05)، ما زال مستغلاّ بالصّورة التّي بُني عليها أوّل مرّة بشكل مكثّف من غير أخذ أدنى التّرتيبات الاحتياطية لحمايته وصيانته حتّى اليوم.

قوام هذا الجسر المحكم البناء، قبوًا مهديا طويلا، مبني بالآجر، تعلوه أرضية مستوية سميكة من الطّابية، كانت مبلّطة إلى غاية نهاية القرن التّاسعة عشر (19) ميلادي، ومستهلّ القرن العشرين على حسب شهادة «مارسيه» (*MARÇAIS*)، الذي تفحصه عن قرب[4]، كما يحيط بطرفيْه الجانبيين، جدار من الطّابية قصير الارتفاع، ما تزال أثارهما باقية على حالتهما الأصلية حتّى الآن.

جسر يمكن تأريخ إنشائه بعام (702هـــ / 1302م)، ونسبته للمرنيين بلا أدنى تحفّظ، أي خلال فترة حصار مائة (100) شهر الذي ضربه المرينيون ملوك فاس على أبناء عمومتكم الزّيانيين بتلمسان إبّان الفترة الممتدّة ما بين شهر شعبان (698) هجري، وشهر ذو القعدة من عام (706) هجري[5]، بناءً على استقراء

1- *** وهو الجسر المسمّى باسم «الجسر العلوي» في هذه الدّراسة.

2- **** اسم السّهل الممتدّ ما بين أسوار الجهتين الشّرقية، والشّمالية الشّرقية من حيّ أغادير بالضّاحية الشّرقية من مدينة تلمسان اليوم، والضّفة الغربية من وادي الصّفصيف المجاور لها من تلك النّاحية. ينظر: BARGES, Op.cit, p 162.

3- BARGES, Op.cit, p 162.

4- MARÇAIS (G & W), Op.cit, p 206.

5- ابن أبي زرع (أبو الحسن عليّ بن عبد الله)، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح، وترجمة كارل يوحن تُورنْبرغ، دار الطّباعة المدرسية، أوبسالة، 1843م، ص 267.

الحوادث التّاريخية في مضان مصادر تاريخ المغرب الإسلامي، ومقابلتها بما بقي من شواهد أثرية بذلك الموقع اليوم.

إذ يُلاحظ وقوع هذا الجسر بداخل المدينة الأثرية، وليس في نفس المستوى مع المدخل التذكاري، الواقع في النّاحية الشّرقية من سور المدينة، كما سلفت الإشارة في مقابل انسجامه مع آثار جدار ثانٍ مهدّم عن آخره مواز للجدار السّابق، الذي يُرجّح الدّارس بشأنه فرضية السّور المريني الأوّل الذي قال بشأنه ابن زرع، أقرب المؤرّخين من تلك الوقائع التّاريخية، ما نصّه بالحرف الواحد: «وفي سنة اثنتين وسبع مائة، أمر أمير المسلمين أبو يعقوب ببناء السّور العظيم على تلمسان الجديدة*[1]، فأتمّ بناؤه في الخامس من شوّال من سنة اثنين وسبع ماية»[2].

ذلك السّور الذي هدّمه الزّيانيون بعد مقتل هذا العاهل هناك مباشرة يوم الأربعاء السّابع من ذي قعدة عام (706) هجري على الرّغم من نصّ الاتفاقية التّي عقدها وليّ عهده، حفيده أبي ثابت عامر بن عبد الله بن أبي يعقوب مع نظيره أبي زيان محمد بن عثمان الزّياني، التّي تمّ بموجبها تنازل الأوّل للثّاني على كلّ ما استولى عليه جدّه من أراضي الزيانيين وقت الحصار المذكور في مقابل الإبقاء على مدينة المنصورة بالصّورة التّي هي عليها، وتعاهدها بالحفظ والصّيانة، وتجنّب الإقامة بها على حدّ ذات الرّواية التّاريخية، التّي قال فيها صاحبها بهذا الشّان ما نصّه بالحرف الواحد: «فلما رأي اجتماع النّاس [أبو ثابت عامر بن عبد الله بن أبي يعقوب] على الرّحيل بعث إلى أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن فصالحه، وصرف إليه جميع البلاد التّي كان أخذها جدّه لهم حاشى تلمسان الجديدة التّي اختطّها أمير المسلمين أبو يعقوب في أيام الحصار، فإنّه اشترط عليه أن لا يدخلها، وأن يبقيها على حالتها، وأن يتعاهد مساجدها، وقصورها بالإصلاح»[3]. وليس في فترة بناء السّور الثّاني، المزوّد بالمدخل التّذكاري المذكور، الذي يُعزى منشأوه إلى

1- * يعني المنصورة، التي اتخذت هذا الاسم في تلك المرحلة التّاريخية، وتدوينه على المسكوكات المرينية المضروبة بها آنذاك، كما يشهد على ذلك بعض القطع النقدية الذهبية المعروضة في المتاحف الجزائرية.

2- ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 267.

3- نفسه، ص 269.

فترة التّعمير الثّاني والأخير للمنصورة على عهد السّلطان المريني أبي الحسن عليّ» (735 - 749) هجري.

4). المميزات الفنّية لجسور تلمسان:

تُصّنف جسور تلمسان الأثرية مجتمعة ضمن أحد أنواع الجسور الأكثر استخداما في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى*[1]، ألا وهو صنف الجسور المعقودة، أو الجسور المقوسة التّي أثارت اهتمام الرّحالة والجغرافيّين المسلمين منذ مرحلة جدّ مبكرة من التّاريخ الإسلامي، حيث سحرت ألبابهم بأناقتها، ومتانتها، فلم يتوانوا في إفراد لها وصفا دقيقا ضمن مصنّفاتهم الجغرافية، وكتب أدب الرّحلات على وجه الخصوص**[2]، بقطع النّظر عن تلاشي تلك الجسور في وقت لاحق، وما أكثرها، أو بقاء آثار بعضها ماثلة للعيان حتّى اليوم، شأن جسر نهر كاشجان بإيران، المشيّد على امتداد تسعمائة (900) قدم كاملة، وهو ما يناهز ثلاثمائة (300) متر بالتّقويم الدولي المعتمد، وبارتفاع تراوح ما بين (49) و(62) قدم، أي ما بين ستة عشر (16) وعشرين (20) مترا تقريبا، الذي ما تزال منه خمسة عقود على هيأتها الأصلية، حيث كان مُنْتصبًا على الطّريق المؤدي إلى «كودشت»، الواقعة على بعد نحو (56) كلم غربي خُورّم باد.

والذي هو في واقع الأمر جسر ساساني الأصل، أعاد المسلمون ترميمه على حسب مضمون ناقشته الأثرية بأمر من الأمير «بدر بن حسنويه الكردي» (980 - 1014)م، الذي كان واليا على إقليم كردستان باسم البويهيّين، وذلك في غضون السّنة الهجرية (400)، الموافقة للعامين الميلاديين (1008 - 1009)م تحديدا[3].

1- * تتعدّد الجسور القديمة بحسب تقنيات تصمّميها إلى أربعة أنواع رئيسية هي: الجسور الكابولية، أو ذات الأكتاف؛ والجسور العائمة، أو الطّافحة على سطح المياه؛ والجسور القوسية، أو ذات العقود؛ والجسور المعلقة. أكثر تفاصيل حول المميّزات الفنّية لكلّ نوع منها. يُنظر على سبيل المثال لا التّخصيص والحصر: دونالد (ر. هيل)، **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية: لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية**، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، رقم: 305، نشر المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 2004م، ص ص 195 - 207.

2- ** يُنظر في هذا الشّأن مؤلّفات كلّ من: الأصطخري، والمقديسي، وابن جبير، والإدريسي على سبيل المثال لا التّخصيص والحصر.

3- دونالد (ر. هيل)، مرجع سابق، ص ص 205 - 206.

ومهما كان من أمر، فبالإمكان حصر الخصائص الفنّية لجسور تلمسان إجمالا على ضوء العوامل الرّئيسية المتحكمة فيها في ثلاث نقاط أساسية هي:

أ). **التّصميم العام**: تعدّدت، وتنوّعت تصاميم جسور تلمسان على ضوء طبيعة البنية المرفولوجية للمكان الذي شُيّدت فيه، والمهام الوظيفية المتوخاة من إنشائها إلى: جسور معقودة شاهقة الارتفاع، شأن «الجسر السّفلي»، المشيد على وادي الصّفصيف الذي بني على طريق رئيسي كان يربط حاضرة المغرب الأوسط، مدينة تلمسان بعصامتها الاقتصادية الأولى، مدينة وهران، حيث كانت حركة البضائع بينهما تعتمد على القوافل، التّي لا يُستبعد أن تكون بعض حيواناتها تجرّ عربات مُعدّة خصّيصا لحمل تلك البضائع، فضلا عن خروج الجيش الملكي منها في اتجاه النّواحي الشّرقية من البلاد، وبذلك كان هذا الجسر مستويا، ومتسعا لعبور العربات، والجيوش في صفوف منتظمة ومتوازية، بل وحتّى الآليات الحربية الضّخمة كالمنجنيقات.

هذا فيما يخصّ عرض الجسر الممتدّ على بضعة أمتار، والذي جاء موافقا للوظيفة المرجوة منه، أمّا فيما يخصّ ارتفاعه عن سرير الوادي، فقد جاء موافقا لطبيعة تضاريس الموقع هناك، الذي تميّز بضيق عرض الوادي، وشدّة انحصادره، وهو ما يجعل منصوب الوادي يصعد إلى ارتفاع قد يتجاوز المترين من غير مبالغة في شيء، أوقات الفيضانات الموسمية، وبالتّالي قطع الطّريق على مستخدميها بلا شكّ، ومن ثم كان الارتفاع الكلّي للجسر يفوق الأربعة، أو خمسة أمتار، كما يمكن أن يُستشف من عرض الجسر، ومتانة قواعده الباقية اليوم، وطول المسافة الأفقية الفاصلة بين بعضها بعضا، والتّي تمثّل في واقع الأمر طول قطر القوسين المرتكزين عليها فيما مضى (اللّوحة: 01).

وجسور معقودة قليلة الارتفاع، مثل «الجسر العلوي»، المشيد بدوره على نفس الوادي في مكان اتسع فيه سرير الوادي إلى نحو عشرين متر، وتراجع معدّل الانحدار فيه إلى أخفض النّسب، حيث يبدو للواقف على ذلك الجسر، وكأنّ ماء الوادي، ماء بركة راكدة كبيرة، والمتفرج فيها على ظهر الجسر، يمتطي قارب

نزهة في بحيرة سياحية.

وجسور مهدية، واسعة العرض، شأن جسر مدينة المنصورة، الذي جاء عرضه بضعة عشر مترا، نزلا عند حاجة أفواج الجيش المتدافعة أفواجا، أفواجا من المنصورة المرينية في اتجاه تلمسان الزّيانية عبر البوابة الشّرقية الرّئيسية عند كلّ غارة، ورجوعهم بذات السّرعة لتجنّب وقوع حوادث في صفوف المتدافعين.

هذا فيما يخصّ سبب توسيع عرض هذا الجسر، أمّا عن سرّ تعويض نظام العقود فيه بنظام القبو المهدي، القليل العرض، فمردّه في المقام الأوّل إلى كون هذا الجسر قد شُيد على ظهر شعبة غير دائمة الجريان، كما يستشف من صغر فتحة الجسر نسبيا، ومن ثمّ يمكن القول بأنّ إنشاء هذا الجسر لم يكن الغرض منه تجنّب المياه في المقام الأوّل، بقد ما كان سببه هو تسوية الطّريق للجند المريني، المرابط بأعداد كثيرة بداخل مدينة المنصورة بغرض تجنّب وقوع بعضهم على بعض في خندقها ساعة الزّحف الأكبر.

بــ). الخام المستخدم وتقنيات بنائه: أُستخدم في بناء هذه الجسور مواد خام محلّية جدّ بسيطة، وغير مكلفة تماما في مقابل متانتها، ونجاعة شدّة مقاومتها لعاديات الزّمن، ونعني بذلك «الطّابية»، أو «التّراب المدكوك» كما يسميه المشارقة، التّي استخدمها المغاربة خلال القرون الوسطى على نطاق واسع في عمائرهم المدنية، والعسكرية، والدّينية، والجنائزية على حدّ سواء، والتّي ما تزال تقنيتها مستمرّة في العمارة التّقليدية بالصّحراء المغاربية بنسب متباينة من منطقة إلى أخرى حتّى اليوم.

مثلها في ذلك مثل بقية المنشآت الدّفاعية، والعسكرية، والمدنية، وحتّى الدّينية والجنائزية، العائدة إلى ذات الفترة التّاريخية، شأن الأسوار المحيطة بتلمسان، والمنصورة (اللّوحة: 06)، وأبوابهما التّذكارية، وحصون منحدر «لالا ستّي»، ومساجد المدينة، وبعض أضرحتها الجنائزية في غياب نوعية جيّدة، وكمّية كافية من الحجارة الملائمة بالقرب منها.

وإلى جانب هذه المادّة الأساسية المستخدمة على نطاق واسع في بناء الجسور المذكورة، تمّ استخدام آجر محلّي الصّنع على نطاق محدود، ألا وهو رسم، وتحديد معالم أقواس جسرًا وادي الصّفصيف (اللّوحتان: 01 - 02)، وقبو جسر المنصورة (المخطط: 02) بدقّة متناهية على منوال بناء وزخرفة الأبواب الرّئيسية بالمدينة تماما.

ج). **الطّراز الفنّي المعتمد:** بوسع المرء غير المتخصص، ناهيك عن الباحث المتمرّس نسبة هذه الجسور للفنّ المغربي الأندلسي الذي لا حت بوادره الأولى في سماء المغرب والأندلس مع بداية الوحدة السّياسية التّي شهدها الغرب الإسلامي أيام المرابطين، ووصول قمّة ازدهاره الفنّي على عهد بني نصر في غرناطة، ومعاصريهم من الزّيانيين بتلمسان، والمرينيين بفاس، ولعلّ أبلغ دليل على ذلك انطباع الرّاهب الفرنسي «بارجاس» من أوّل وهلة ساعة تحدثه عن «الجسر العلوي»، كما سلفت الإشارة من قبل[1].

وممّا لا يدع شكّ في ذلك هو إجراء المقارنة الميدانية بين هذه الجسور، وما جاورها من معالم أثرية مدينة وعسكرية، ودينية قائمة حتّى اليوم، حيث تبدو جميعا على طراز فنّي واحد، سواء من حيث استخدام مواد الخام، أو تقنيات بنائها وتنميقها، أو طبيعة الأدوات والحيل الفنّية المطبقة عليها.

5). قيمتها الأثرية:

ليس من المبالغة في شيء، إذا ما قلنا أنّ هذه الجسور في غاية الأهميّة الأثرية من أوجه عدّة لعلّ من أبرزها على الاطلاق ما يمكن سرده الآن في شكل نقاط سريعة تماشيا مع حجم وطبيعة هذه الدّراسة القصيرة:

- أنّها الجسور الوحيدة على الصّعيد الوطني، التّي وصلت إلينا من فترة القرون الوسطى، وما تزال تشتغلّ إلى يومنا هذا، إذا ما استثنينا جسر وادي «فرج» شمال شرق قلعة بني حمّاد بالمعاظيد، الذي يرجح بشأنه عودته إلى الحمّاديين

1- BARGES, Op.cit, p 399.

أنفسهم، والذي لحقت به أضرارا بليغة في الآونة الاخيرة في غياب أعمال الصّيانة والترميم المحتاج إليهما باستمرار، حيث أصبح بموجب ذلك معطلا تماما.

– أنّ هذه الجسور قد لعبت دورا حاسما في الوقائع التّاريخية التّي عرفتها مدينة تلمسان وضواحيها على مرّ العصور، الموالية لتاريخ إنشائها من دون شكّ.

– تأكيدها للمستوى الرّاقي الذي بلغته الحركة العمرانية بمدينة تلمسان خلال فترة القرون الوسطى، حيث لم تقتصر تلك الحركة على تشيّيد قصور الملوك، وبناء المساجد، والأضرحة الفخمة، وتحصينها بالأسوار العملاقة فحسب، كما تصوّرها لنا كتابات، وبحوث بعض الدّارسين اليوم بقدر ما هي حركة عمرانية متكاملة، وشاملة لمختلف مجالات الحياة، كما يمكن أن يُستقى بوضوح من هذه المنشآت الفنية، ومنشآت الرّي، وشبكات تزويد الحواضر بالمياه الصّالحة للشّرب، والصّرف الصّحي، وغيرها، التّي ما تزال حقلا بكرا من غير دراسة، رغم غزارة الشّوهد الأثرية المتوفرة بشأنها، كما سلفت الإشارة في مستهلّ هذه الدّراسة.

– وعي أهل تلك الفترة الزّمنية البعيدة نسبيا بأهمية تلك الجسور، كما يمكن أن يُستشفّ بوضوح من تنويع أشكالها، وأحجامها، تبعا لاختلاف موقعها، والأغراض المتوخاة من إنشائها، حيث كانت معنا ثلاثة نماذج، كلّ أنموذج منها يعبّر عن نوع مستقلّ بذاته عن بقية أنواع الجسور المعقودة التّي عرفها الإنسان على مرّ الأزمان الغابرة.

– أنّ هذه الجسور تكتنز من المعطيات المعرفية، ما يؤكّد المهارة العالية التّي كان يتحلّى بها منشئوها في حقل معرفي، يعتبر اليوم قمّة ما جادت به قريحة الإنسان في مجال العمارة منذ عصور ما قبل التّاريخ حتّى اليوم، ألا وهو مجال «المنشآت الفنّية».

خاتمة :

وصفوة القول؛ فإنّ هذه الكنوز الأثرية النّادرة بأمسّ الحاجة اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى إلى حصانة قانونية تقيها خطر التّوسع العمراني الزّاحف نحوها بشكل فوضوي، وبسرعة كبيرة؛ وعقلنة عملية استخدامها اللامبالي بعواقب سوء الاستخدام على نحو مدروس لضمان استمراريتها مستقبلا، وذلك بجردها في قائمة التّراث الوطني بأسرع ما يمكن كإجراء استعجالي، ثمّ التّفكير بتأنٍّ في وقت لاحق لوضع قنوات الرّقابة الفنّية اللاّزمة، وتوفير لها إجراءات الصّيانة الدّائمة.

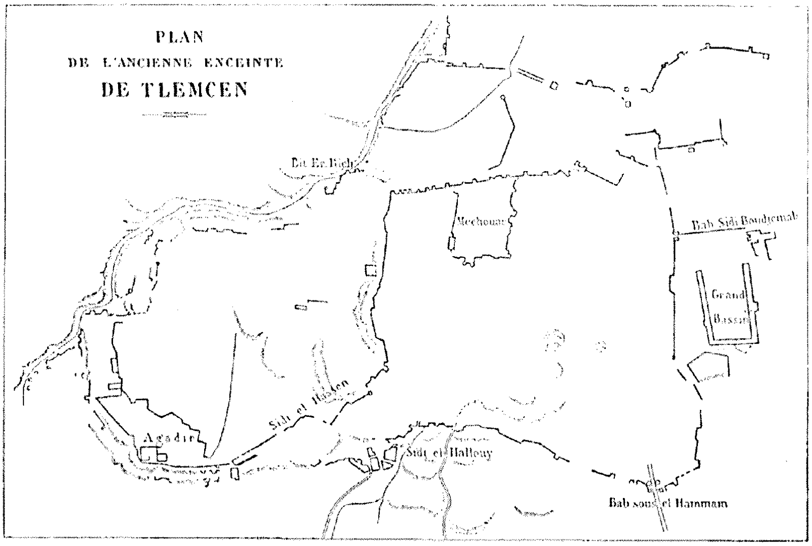

المخطط (01): امتداد انسياب موقع تلمسان من الجنوب في اتجاه الشّمال، نقلا عن: «دو لو رال».

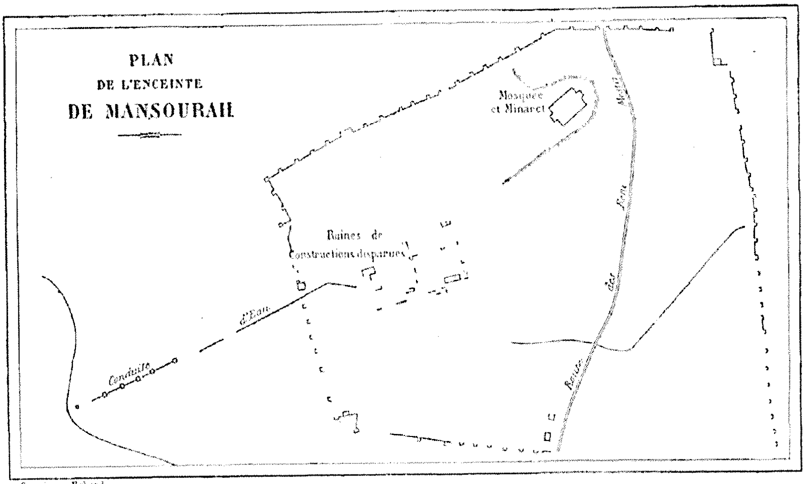

المخطط (02): موقع مدينة المنصورة، نقلا عن: «دو لو رال».

اللّوحة (01): الجسر السّفلي على وادي «الصّفصيف»، تصوّير «بن حمّو محمد».

اللّوحة (02، أ): بقايا جسر القرون الوسطى، تصوّير «بن حمّو محمد».

اللّوحة (02، ب): بقايا جسر القرون الوسطى، تصوّير «بن حمّو محمد».

اللّوحة (03): لوح الكتابة التّذكارية الفرنسية، تصوّير «بن حمّو محمد».

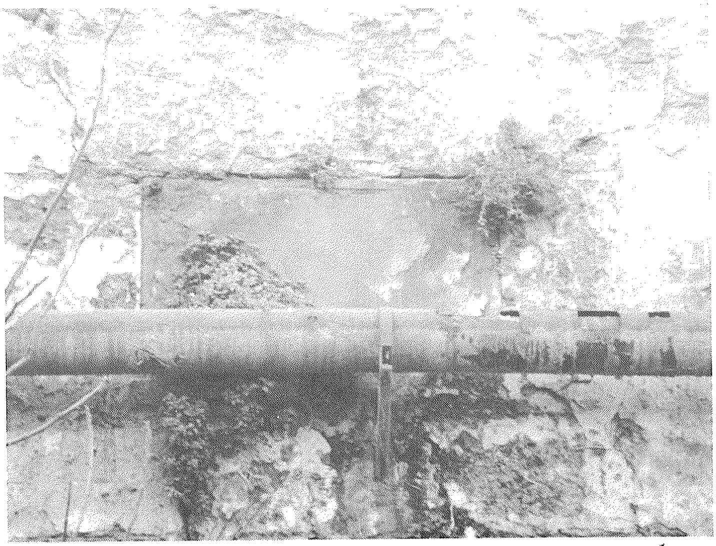

اللّوحة (04): موضع تعليق لوح الكتابة التّذكارية العربية قبل ضياعها، تصوّير «بن حمّو محمد».

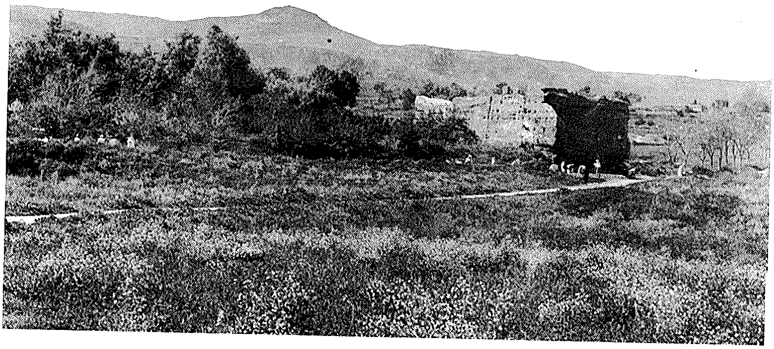

اللّوحة (05): الطّريق الفرنسي الذي شُقّ على مستوى المدخل التذكاري، «أرشيف إلكتروني».

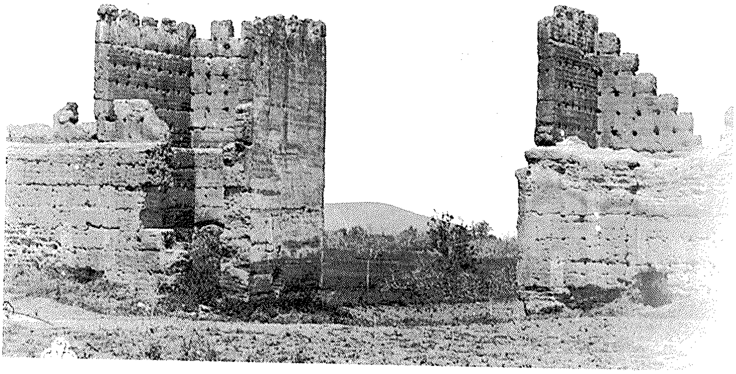

اللّوحة (06): مدخل من مداخل مدينة المنصورة المشيّدة بالطابية، «أرشيف إلكتروني».